سمات المثقف الثوري

بقلم عزيز السيد جاسم

ان النظر الى المثقفين كطبقة ذات خصائص مميزة اصبح علامة تشير الى البؤس التحليلي وغياب الوعي العلمي من حيث ان الطبقة ليست صنفا او تجمعا ثقافيا او دينيا او اجتماعيا . بل ان الطبقة هي مجموعة كبرى من افراد تجمعهم علاقات واضحة ومحددة ومتشابهة بالنسبة لوسائل الانتاج . وبذلك يكون للطبقة اساس مادي مكين يتجوهر ببروز في علاقات تتشكل حول الفعل الاقتصادي . ولذا فنحن عندما نقول بأن (البروليتاريا) طبقة لا نعني بذلك المواصفات الشكلية والتجمعية ، وانما نعني وضعها كافراد تجمعهم ظاهرة المنتج الفعال والاجير الذي لا يمتلك فعليا وسائل الانتاج ، مع ما يترتب على ذلك من اضافات وعلائق اجتماعية معينة . اي اننا ندرك، عبر الفعاليات الاقتصادية ، لماذا يشكل الفلاحون طبقة ، وكذلك البرجوازيون ، في حين ان القضايا الفكرية او السايكولوجية او التعاطفات الاجتماعية لا تصح ان تكون الاساس الموضوعي الذي تتركز حوله الطبقة . وبالنسبة للمثقفين، وعلى اثر الاستحداثات الميكانيكية والتكنولوجية الفائقة الاهمية والتي ارتبطت بتنامي القدرات الرأسمالية، فقد تحولوا الى مجاميع بادية للعيان . اي ان غياب الانتاج البضاعي البسيط والحرفي وحلول الصناعة الثقيلة والتطور الآلي ادى الى اشاعة الثقافة وتعاظم اهمية العقل وتوكيد العلم كقوة كبرى تتحصن بواسطتها الامتيازات الرأسمالية . ولذلك اضحى من نافل القول اعتبار الانطلاقة الثقافية مرهونة بانسحاب ظلال النظام الاقطاعي وبزوغ البرجوازية .

وبقدر ما يحتفل المجتمع بتدشينات صناعية ومالية وفنية كبرى يزداد عدد المثقفين ويتحولون الى كم قد يوهم بابعاد طبقية . ولكن هل يكون هذا الكم مرتبطا بشروط محددة كتلك التي تشد الفلاحين الى الارض او العمال الى الآلة ؟ طبعا لا . اذ ان هذا الكم ، على تميزه بالامكانيات الثقافية ، يظل حاويا على تباينات وفوارق جدية تحتمها طبيعة كل مثقف والبعد الثقافي له مع نوعية عمله . فهناك العامل المثقف وهناك البرجوازي المثقف ، وهناك المثالي وهناك المادي . هذه التباينات الجذرية تلغي وجود الجسر الذي تنشأ حوله الطبقة، ففي حين تكون الاسس المادية لنشوء الطبقات اشبه بقدر قانوني متشابه محليا وعالميا تكون العلاقات الثقافية تشكيلا فوقيا متأثرا بالاساس . مع العلم بأن نشوء الطبقات يمتلك الامتداد التأريخي كخطوط بيانية توغل في صلب التأريخ في حين ان قضايا الفكر تأتي بالدرجة الثانية . ومعنى ذلك ان كون الطبقات هي الاساسيات الاولى يجعل الثقافة والمثقفين يتحركون ضمن المجالات الطبقية . ولهذا ينتفي تماما وجود (مثقف حيادي) حيث لا ثقافة حيادية ابدا . ولان البرجوازية عمقت الفوارق الطبقية بشكل بين وحيث انها خلقت استقطابا اجتماعيا متقابلا فانها كيما تطور شروطها المعطاة فرضت على المثقف انحيازا صارما وشجبت الحيادية الثقافية كافتراض لاواقعي . اي ان الحدية التي توطر الامكانية الثقافية ميزت المثقف الاشتراكي عن المنظر البرجوازي بتعارض صلب حتمته التعارضات الحدية والمتقابلة بين المستغلين ـ بكسر الغين ـ والمستغلين ـ بفتح الغين ـ . ولذلك نجد عند اي استقراء علمي بسيط ان المجتمعات الاقطاعية او شبه الاقطاعية قد تزخر بمتعلمين كخليط مشوش تقريبا ـ له جذره الطبقي طبعا ـ في حين ان المجتمعات البرجوازية تفرض على هذا الوسط المشوش انفراقا يتأتى من تحدد ووضوح هوية المثقف . وبذلك يعكس الانقسام الطبقي الحاد نفسه على المثقفين باكثر من السابق جلاء .

وفي مجتمعنا العربي الذي يعيش المخاض والذي يقدم عينات اقتصادية واجتماعية من البنية الاقطاعية ، والبنية شبه الاقطاعية وشبه البرجوازية نستطيع ان نلمس ثلاث فصائل من المثقفين : فهناك المثقفون البرجوازيون ، وهؤلاء يدافعون عن مسائل معينة حسب درجاتهم وحسب تخوفهم من المراقبة الشعبية وباسلوب يتراوح بين التصريح والتلميح . فمنهم من يتحدث عن المحافظة او الاغتراف النهائي من القديم ، ومنهم من يتكلم عن الاعتدال ، ومنهم من يتكلم عن ازلية النظام الرأسمالي وخرافة الافقار ، ومنهم من يرفع شعارات السلم الطبقي والمصالحات وخطر الثورات واحلال الصيغ البرلمانية في النضال ... الخ. ويحيط الفكر البرجوازي عند هؤلاء المنظور المثالي الذي يحسنون استعماله عند خلق بلبلة فكرية قد تكون مثمرة بالنسبة لهم . ولا مانع من تسخير الفكر الاشتراكي المحرف من قبل البعض للتصدي لليسار باسم اليسار ونسف الثورية باسم الثورية ، وهذا ما يحدث بخطورة بالغة في المجتمعات التي تعيش مقتبل نهوضها حيث تمارس قطاعات معينة تفريغ الفكر الثوري

من محتواه والمتاجرةبه من اجل امرار البضاعةالبرجوازية وزرع اللغم في كتيبة المثقفين الثوريين .

اما الفصيلة الثانية فهي التي تضم المثقفين الثوريين الذين يمتلكون علائم ومميزات خاصة نأتي لها لاحقا . وتظل الفصيلة الثالثة من المثقفين كوسط رجراج يحمل جذورا عديدة ومتفاوتة وهو ــ اي هذا الوسط ــ ميال الى التقلص ، وذلك لانه يتجه حتما الى احد القطبين في الفصيلة الاولى او في الثانية . وتقلص هذا الوسط وتشرذمه مرهون بالتغيرات العميقة التي يحبل بها المجتمع والتي تجد مرتكزها في تبدلات ادوات الانتاج والقوى المنتجة والعلائق القائمة .

من هو المثقف الثوري ؟

ان تحديد سمات المثقف الثوري امر بالغ الخطورة لانه الضمانة الوحيدة للحفاظ على الاصالة الثقافية الثورية والكابح الذي يوقف كل عمليات السطو والغزو الايديولوجي السام التي تضخها الهيئات الفكرية للبرجوازية . ونظرا للدور الحيوي الذي يمارسه المثقف فهو مطالب بأن يعي المميزات والخصائص التي يتطور خلالها عبر تربية شاقة تتعهدها المسؤولية النضالية.ومن الجانب الاخر نستطيع ان نرى المكر البرجوازي الذي جند الكثير من عملائه كلاندساس في الجانب الثوريحتى يستطيع ان يضرب ضربته في الوقت المناسب وكما حدث في الكثير من الحركات الاشتراكية في العالم وكما يحدث بكثرة في بداية تفتح الوعي الاشتراكي في اقطار اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .

لذا فان التشديد على سمات المثقف الثوري بمثابة جزء من التصلب الذي تقتضيه طبيعة الدفاع الثوري ، هذا التصلب الذي يعتبر التحصن الكفاحي البالغالاهمية والذي بامكانه فحسب مقابلة البربرية البرجوازية المتفننة في وسائلها العنفية بعد ادراكها لحقيقة احتضارها القائمة .

ما هي هذه السمات اذن ؟

اولا ــ ان المثقف الثوري هو من استوعب الفكر الاشتراكي العلمي استيعابا حقيقيا كاملا بحيث تأهل لان يحتاز الايديولوجية الثورية كمرشد ودليل نظري للعمل . وهذا الاستيعاب لا يعني فحسب هضم كل مسائل الفكر الثوري العالمي وانما يعني ايضا تطويع قوى المثقف ذهنيا وسايكولوجيا وجسديا وبشكل وظيفي تام الالتزام وقادر على التطور باستمرار ، بما يضم ذلك من اجتثاث للجذور التقليدية وافكار العادة ورواسب الحياة والتربية البدائية عبر العمل الثوري والتجربة الثورية بحيث يكون الاستيعاب جزءا من المغامرة المشروعة .

ثانيا ــ ان الاقتصار على الغذاء الفكري الذي قدمه الرواد الاشتراكيون ليس من صفات المثقف الثوري . فالثوري مطالب بالاستفادة من كل القضايا الفكرية التي قدمها المفكرون . اي انه مطالب بدراسة الفكر المثالي والفكر المادي القديم والاطلاع على النتاج الثقافي للبرجوازية . ومن خلال الدراسة الناقدة والنظرةالثاقبة التي يتسم بها الثوري المثقف يستطيع ان يزيل الاغلفة ويعطي للفكر رأسه الحقيقي تماما كما فعل (ماركس) مع ديالكتيك (هيغل) وكما يفعل (غارودي) ــ في باب اخر ــ في دراساته القديمة (عن ابن خلدون مثلا) .

ان المثقف الثوري مسؤول عن كل قضايا الفكر في العالم ، وان الاستنكاف عن مطالعة او دراسة المسائل الفكرية المختلفة انما هو دليل على ان هذا المثقف قد كف عن كونه ثوريا مثقفا واباح لنفسه ان يتكلس في شرنقته الذهبية ليخط وثيقة نهايته .

ثالثا ــ ان المثقف الثوري يمتلك صلات روحية بالشعب . وبهذه الصلات يكون هذا المثقف تلميذا ومعلما، جنديا ورائدا ، لا يبتعد امام الشعب ــ في المقدمة ــ كثيرا ولا يتلاشى في وسطه ، بل انه معه باستمرار ، يوجهه دون ان يتعالى عليه ، ويتواضع دون ان يذوب . ان المثقف الثوري يذهب الى المصنع والحقل والجبل والمرعى والمقهى والشارع لانه صاحب رسالة ، وهذه الرسالة لا تصدر ابدا من مكتب او مذياع ، انها معايشة يومية مخلصة مستمرة التجدد . وعن طريق هذه المعايشة يستطيع المثقف ان ينقي نفسه باستمرار ، لان الشعب مهما كان بسيطا فهو المربي العظيم . ترى الا نستطيع ان نحكم على اولئك الذين يمضغون علكة اليسارية والثورية بشراهة وهم مسمرون على مقاعدهم العتيدة ؟

رابعا ــ اخلاقية المثقف الثوري لصيقة بمقتضيات النشاطات الثورية . ولكن هذه الاخلاقية لا تخرج عن المدى الاساسي الذي يملك روح الرائد وهذا المدى هو الحب المتعاظم للانسان . واخلاقية المثقف تتحدد بانشداد النظرية الى العمل . وبدون العمل الثوري لا يوجد فكر ثوري ، لان الفكر حينئذ يتقزم كمصطلحات وعبارات تستظهر بسخف وعبث . وبالنسبة لواقعنا العربي ولطبيعة المهمات الواجبة علينا فان اخلاقية المثقفتستلزم منه ان يكون مشدودا باعمال المقاومة العربية المجيدة في فلسطين المحتلة مع كل ما يقتضيه هذا الانشداد من عمل وبذل ونكران ذات . ولقد كان للطواف المقدس الذي عانقه الملاح الثوري (غيفارا) من أجل القضية ، ولدخول المثقف (دوبريه) قلب القضية ، حصيلة هائلة فرضت على المثقف العربي الاستعداد الكلي لحمل البندقية مع الكلمة ..

ان أخلاقية الثوري هي ، وبالضبط ، أخلاقية العمل الطوعي من أجل الشعب ، هذا العمل الفدائي غير المنقطع مع ما يحيط به من أروع المثل الاخلاقية وأكثرها شرفا . وبذلك فقط لا يمكن ولن يمكن أبدا للمثقف الثوري أن يسقط أمام الاغراء لان معادلته الوحيدة هي (هو القضية والقضية هو) .

ــ التتمة على الصفحة ٥٤ ــ

سمات المثقف الثوري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

***

خامسا ـ بالنسبة لهذه السمات المذكورة لا تتسلل الواحدة بعد الاخرى ولا يكتسبها المثقف شيئا بعد شيء . انها كلها متداخلة في سمة واحدة . ومن الغباء تماما القول : الدراسة أولا ثم الاخلاص للشعب ثانيا . فالدراسة تمتزج بالاخلاص بشكل حقيقي ، بحيث يفتني الواحد بالآخر وبحيث يكون تطور المثقف متناميا باستمرار عبر كل هذه السمات .

لمن ينتمي المثقف الثوري ؟

ان كل مثقف في العالم هو صاحب قضية . وهذه القضية لا بد أن تنحاز وتضاف الى التراكمات الموزعة على الجبهات الطبقية . ولما كان تاريخ العالم هو سلسلة من الصراعات الطبقية فان المثقف مشدود فعلا الى هذه الصراعات بحيث ترتبط تطلعاته بوعي أو بلا وعي بتطلعات طبقة معينة . ان المثقف البرجوازي مثلا يعي تماما انضواءه وايديولوجيته ، وكذلك المثقف الاشتراكي . ولكن هناك مجموعة من المثقفين لا تتحدث اطلاقا عن الانتماءات الطبقية ، فهي تصور نفسها وكأنها منفلتة من كل الرابطات القائمة لتتحدث عن (الفكر الصافي) أو عن (الوجود والماهية) أو تستغرق في مسائل جد قديمة .. الخ . هذه المجموعة من المثقفين قد لا تعي دورها الطبقي أو انها تنكره اصلا ، لكنها ومهما تفعل لا بد أن تكون في تحصيل الحاصل مدموغة بالهوية الطبقية . وذلك لا يكشفه الا النقد العلمي في الايدلوجيا السياسية، فليس شرطا ان يخون المثقف البرجوازي برجوازيته ويعلن تنصله منها ليضحي اشتراكيا أو غير برجوازي ، وليس شرطا أن يتحدث المثقف بمصطلحات ومقولات اشتراكية حتى يسمى اشتراكيا . وكذلك وعند تسليط الاضاءة النقدية الموجهة تبدو لنا خرافة ما يسمى بالمثقف الانساني في عصر الاحتدامات الطبقية ، من حيث ان الانسانية المطلقة غير متوفرة في مثل هذا العصر ، لماذا ؟ لان الفهم الانساني الحقيقي يقود الى التزام القوى البشرية المظلومة وبالتالي يدعو الى اعلان الحرب ضد المجموعات (البشرية) المعادية للانسان . ان طبيعة العصر القاسية فرضت وجود انسانين (مذنب كبير وبريء كبير) ولذا تكون (الانسانية المطلقة) غير واردة . فهناك (الانسانية البرجوازية) التي ترتكز على مقولاتها الخاصة والتي تلتزم الانسان سطحيا . وهناك (الانسانية الثورية) ، انسانية الاشتراكيين التي تلتزم الطبقات الكادحة والمسحوقة . أما النوع الانساني (الشمولي) أو (المثالي) فهو ينضاف في النهاية الى نوع ما : برجوازي أو اشتراكي . لذا فمن الممكن أن تظل مفاهيم (الانسانية المطلقة) أو (الديمقراطية المطلقة) مجرد تسميات لا وجود فعليا لها في عالم الغليان والانفجارات الطبقية والثورية ، انها من الممكن أن تجد معناها في مرحلة واحدة هي المرحلة اللاطبقية ، أي عندما تنتهي كل أشكال الاستغلال .

وبالنسبة للمثقف الثوري لا يتزيى بالمصطلحات العامه وغير المحدوده (الانسانيه ، الخير ، السعادة ، المساواه .. الخ) بل أن منطلقاته الفكرية واضحة ودقيقه وغير معرضه للتاويل أو الازدواج . انها المنطلقات التي تحدد مسارها مع حركه التاريخ الصاعدة ، انها انسانيه في حدود تحطيم الاشكال الانسانية المتهرئة والمعادية للتطور والحريه ، وهي تاريخيه لانها تعطي للتاريخ قوة رياضيه بعد ازاحه كل المعوقات التي فرضها العدوانيون على بناه المجتمعات الناهضه من الشغيلة والكادحين .

وحيث أن المثقف الثوري واضح الانتماء ، ويعارضه بالمقابل المثقف البرجوازي ، وكل واحد من الطرفين مسلح بمواده الثقافيه الخاصه ، لا بد ان نؤكد ان الثقافه لا تنحصر في المجالات الطبقية فحسب . فهناك فوق الفكر البرجوازي والفكر الاشتراكي فكر عالمي فكر انساني ، هذا الفكر الذي يعزز الابداعات العلميه او سواها . فليس اذن كل ما تمنحه البرجوازيه من خلق فكري هو برجوازي مرفوض ، ان هذا خطا كبير ، اذ أن هناك بين البرجوازيين والاشتراكيين قاسما مشتركا فكريا ينتهل منه الجميع ، وبعد ذلك يتم تمثيله وتحويله من قبل كل طرف ليدعم به مكانته ووضعه التاريخي . اي ان انتمائيه المثقف تفرض نفسها بشكل سافر لتحول الفكر العالمي وتفسره لصالحها في النهاية .

ومن خلال كل ما تبين نستطيع أن ندرك عمق المهام المطروحة على المثقف الثوري العربي . انه لا يجابه فقط عدوانا خارجيا تقوم به زمر صهيونية وامبريالية ، بحيث يعلن ميلاد ثوريته الجديدة . ان هذه المهام المتشعبة تدعوه الى احاطة كاملة بأبعاد القضية العربية .

ما حركتها الداخلية ؟ وما هو التقسيم الطبقي داخل الامة ؟ وما العلاقة بين حركة الامة العربية الذاتية وبين التطورات العالمية ؟.. الى آخر ما يفترض طرقه من مسائل حيوية حتى يستطيع أن يكون المثقف العربي بمستوى انتمائه ومتطلبات ذلك الانتماء .

ان التطورات المعاصرة تستلزم من المثقف العربي أن يتعامل بذكاء مع القضايا الثورية والفكرية الكبرى حتى يستطيع أن يسهم في تكوين ملامح مميزة لثقافة عربية ثورية .

العراق — **عزيز السيد جاسم**

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار